الغربة والحنين في شعر عبد الكريم بن فضال الحلواني الأندلسي "بين التشاكل والتباين"

د. محمد حسانين إمام حسانين الضلع(*)

الملخص باللغة العربية:

لقد جاء البحث المعنون بـــ (الغربة والحنين في شعر عبد الكريم بن فضال الحلواني الأندلسي "بين التشاكل والتباين") في تمهيد وسبعة وقفات، لهذا الشاعر الأندلسي المغمور، الذي لم يدرس قبل ذلك إلا ضمن مجموعه الشعري؛ وقد جاء جل الشاعر في الغربة والحنين، مما دعا الباحث إلى دراسته، ولا شك أن الغربة والحنين تتناسب وطبيعة التشاكل والتباين؛ فالغربة والحنين بؤرة دلالية للمتضادات؛ ومن ذلك حنين الشاعر وغربته من نواح عدة، منها الجانب النفسي والجسدي والديني والمكاني/ الوطن والعاطفي والعُمُري والاجتماعي؛ فكل هذه الأنماط توافرت معطياتها الشعرية؛ وقد رسمها الشاعر في لوحات فنية تشاكلية وتباينية على اختلاف أنماطهما؛ إجمالًا للتشاكل اللفظي والمعنوي وكذلك التباين، أو تفصيلًا لهما مننناحية التشاكل اللفظي أو الإيقاعي أو التركيبي أو الدلالي؛ فالشاعر في حينه واغترابه النفسي يتذكر أيام ذكرياته مع محبوبته، فيتخذها مصدراً لاسترجاع ماضيه وآلام حاضره، وكذلك حنينه الديني إلى الأماكن الحجازية فيود زيارتها ليغسل قلبه ويطهر نفسيته مما أصابه من واقعه الأليم في غربته واغترابه، وهكذا يعقد بين كل تشاكلاته وتباينته، إلا أن أجمل ما جدده في تعبيره عن حنينه وغربته هو التجديد في طرحه لحنينه وغربته الجسدي؛ فقد استخدم السرد القصصي وعناصره، جاعلًا من نفسه راوياً للحدث؛ وذلك حال رحيل الأحبة عنه؛ ومن ثم، تعد هذه لمحة تجديدية في رسم صورة غربته وحنينه على مستوى شعره كله.

Abstract

The research entitled "Alienation and Nostalgia in the Poetry of the Andalusian Abdul-Karim bin Faddal Al-Halwani: Isotopy and Allotopy" came in a preface and seven sections, on this obscure Andalusian poet, who had only been studied before that just within his poetry collection. Most of the poet's work came about alienation and nostalgia, which prompted the researcher to study it, and there is no doubt that alienation and nostalgia are proportional to the nature of isotopy and allotopy. Alienation and nostalgia are a semantic focus for opposites. This includes the poet's nostalgia and alienation from several aspects, including the psychological, physical, religious, spatial, home, emotional, age, and social aspects: for all of these styles, their poetic data are available. The poet has painted them in artistic paintings that are similar and contrasting in their different styles, as a summary of verbal and moral isotopy as well as allotopy, or in detail in terms of verbal, rhythmic, syntactic, or semantic similarity. The poet, in his time and

(*) مدرس بقسم الدراسات الأدبية ـ دار علوم المنيا

psychological alienation, remembers the days of his memories with his beloved, and takes them as a source for recalling his past and the pain of his present. As well as his religious longing for the places of Hijaz, he would like to visit them to wash his heart and purify his psyche from what befell him due to his painful reality of his alienation and foreignness, and thus he complicates all his problems and differences. However, the most beautiful thing that he renewed in his expression of his longing and alienation was the renewal in his presentation of his physical longing and alienation. He used storytelling and its elements, making himself the narrator of the event. This is when his loved ones leave him; Thus, this is a regenerative aspect on portraying his alienation and longing throughout his entire poetry.

مقدمة:

يعد أبو الحسن عبد الكريم بن فضال الحلواني القيرواني الأندلسي أحد الشعراء المغمورين، الذين جُمع شعرهم مؤخراً، وقد توافر في شعره موضوعة (الغربة والحنين) أكثر من غيرها حضوراً في شعره، بما تكشف عنها سيماتها من طاقات دلالية مباشرة وغير مباشرة؛ مما يناسب المنهج السيميائي؛ خاصة (التشاكل والتباين)؛ فالغربة والحنين طبيعتها التحول والتغير، أو التذكر بين ماض وحاضر ومستقبل مع المقارنة بين كلٍّ؛ وعدم الثبوت على حال؛ فالشاعر يعبر عن مكنونات صدره بالمفارقة أو المقارنة بين حاله في غربته واغترابه فيحن إلى ما ترتاح إليه نفسه؛ فتارة توافق حاله فيسعد ويطمئن، وأخرى يئن ويتألم على ذكرياته، جاعلًا من المتضادات وسيلة لشحن ألفاظه دلاليًّا، كما أن الغربة والحنين تتناسب وطبيعة التشاكل والتباين؛ فالغربة والحنين بؤرة دلالية للمتضادات؛ ومن ذلك حنين الشاعر وغربته من نواح عدة، منها الجانب النفسي والجسدي والديني والمكاني/ الوطن والعاطفي والعُمُري والاجتماعي، كل ذلك مفصلًا في موضعه من البحث، ومن ثم، تخير الباحث، عنوان (الغربة والحنين في شعر ابن فضال بين التشاكل والتباين).

أولًا ــ أسباب اختيار الموضوع:

١- عدم وجود أي دراسة سابقة للشعر المجموع للشاعر.

٢- توافر التقارب الدلالي بين التشاكل والتباين في عينة الدراسة.

٣- الربط بين التراث القديم والمناهج الحداثية؛ فالأندلسيات بمنهج السيميائية جمع بين الأصالة والمعاصرة.

٤- سبر أغوار الألفاظ ببيان شبكة من التشاكلات والتباينات متقاربة أو متباعدة بخيوط الشفرات الكائنة خلف الألفاظ.

٥- كشف اللِّثام عن أهم موضوعة في شعر شاعر مغمور ليكون متاحًا بالمكتبة الأدبية القديمة.

ثانيًا ــ منهج الدراسة:

سيعتمد الباحث المنهج السيميائي في دراسته، من خلال المعطى السيميائي المعروف بـــ (التشاكل والتباين) ليرصد الباحث من خلاله التشاكلات والتباينات بين الشيب والشباب، بين الاستقرار والاغتراب، وغيرها من المعاني التي تتلاءم وطبيعة المضمون.

ثالثًا ــ الدراسات السابقة:

لم تقع يد الباحث ــ حسب اطّلاعه ــ على أي دراسة سابقة، سوى الدراسة التي جمعت شعر ابن فضال، وهي كتاب (أبو الحسن عبد الكريم بن فضال الحلواني القيرواني الأندلسي: حياته وما تبقى من شعره)؛ وسيعتمدها الباحث دراسة رئيسة للرجوع إليها؛ فقد بين صاحب تلك الدراسة أهم الوقفات التاريخية في حياة الشاعر وأهم موضوعات شعره، مع ختامها بمجموع ما تبقى من شعر ذلك الشاعر؛ فسيفيد الباحث من ذلك كله في بحثه.

رابعًا ــ خطة البحث:

سيرتكز البحث في تمهيد، يتضمن مصطلحات البحث، وحياة الشاعر، ثم المباحث الرئيسة للبحث، وهي سبعة وقفات كالآتي:

١ ــ غربة الشيب والحنين إلى الشباب بين التشاكل والتباين

٢ ــ الحنين إلى الأماكن الحجازية وغربة الشاعر بين التشاكل والتباين.

٣ ــ الحنين إلى الوطن وغربة البَيْن بين التشاكل والتباين.

٤ ــ الغربة بين الاغتراب الاستيطاني والحنين إلى الوطن الأم.

٥ ــ غربة الفراق والحنين إلى المحبوبة بين التشاكل والتباين.

٦ ــ سيميائية الغربة النفسية وحنين الفراق الجسدي المكاني.

٧ ــ الغربة الجسدية والحنين الروحي تجاه الوطن بين التشاكل والتباين.

ثم يختمها الباحث بأهم النتائج، فقائمة المصادر والمراجع.

التمهيد:

أولًا ــ مصطلحات البحث:

١ ــ الغربة والحنين في شعر ابن فضال الحلواني:

وسمت الحقبة التاريخية التي عاش فيها ابن فضال في صراع نفسي، مما أثر في نفسيته؛ وذلك واضح " من خلال شعره المجموع يبدو أن القيرواني عاش في صقلية، ومن ثم في الأندلس حياة حزينة ومضطربة، فظل يحن إلى القيروان ومن فيها؛ إذ كثرت في ألفاظه شعر الغربة والحنين والشكوى، وأبقت على سمات الحزن والألم في أكثر وحداته الشعرية وأغراضها حتى في

المديح كما يلحظ القارئ جلياً من خلال شعره المجموع"[١]، حتى إن اختلاط الغربة والحنين طال مديحه الشعري، حينما " مدح صاحب ديوان الخمس(إبراهيم بن محمد الشامي الكناني)؛ فيلحظ في ألفاظ مدح ابن فضال معاني الغربة والألم وصروف الليالي، وما تفعله في المرء، وما فعلته في مشاعر شاعرنا القيرواني ونفسيته، ومن ثم في شعره"[٢]، وسيتوقف الباحث مع تلك الغربة وذلكا لحنين من خلال معطىً سيميائيًّا، ألا وهو (التشاكل والتباين)؛ فيكون عنوان البحث: (الغربة والحنين بين التشاكل والتباين).

٢ ــ مصطلحا منهج الدراسة: (التشاكل والتباين)

لقد أورد النقاد المترجمون مصطلحي منهج الدراسة (التشاكل والتباين) بأكثر من مسمى؛ وذلك لاختلاف مشارب ترجماتهم حال التعريب؛ إذ أسماه "عبد الملك مرتاض بـ (التشاكل والتباين / التشاكل أو إيزوطوبية / المشاكلة، اللاتشاكل)، وأما عبد القادر فيدوح فأسماه (التشاكل)، ورشيد بن مالك أسماه (إيزوتوبيا)، وعبد السلام المسدي أسماه (التشاكل والتباين) وسعيد بنكراد أسماه (التناظر) والغذامي أسماه (المشاكلة والاختلاف/ الائتلاف/ شدة الاختلاف)"[٣]؛ هذا إلى جانب تنوع تعريف التشاكل عند النقاد لكن مؤداه واحد في النهاية؛" فإذا كان (كريماص) قد قصر التشاكل على المضمون، فإن (راستي) قد عممه ليشمل التعبير والمضمون معًا؛ أي أن التشاكل يصبح متنوعًا تنوع مكونات الخطاب، بمعنى أن هناك تشاكلًا صوتيًّا، وتشاكلًا نبريًّا، وتشاكلًا إيقاعيًّا، وتشاكلًا منطقيًّا وتشاكلًا معنويًّا"[٤]، ومن ثم؛ تنوعت أنماط التشاكل مثل التشاكل الصوتي والنبري والإيقاعي والمنطقي والمعنوي؛ لكن هنا ثم تكرار؛ فالإيقاعي والنبري والصوتي ثلاثتهم متقاربون معنًى، ولهذا، كان تعريف (د.عبد الملك مرتاض) كثر اتساعًا وشمولية؛ إذ عرف التشاكل بأنه " كل ما استوى من المقومات الظاهرة المعنى، والباطنية والمتمثلة في التعبير أو الصياغة وتأتي متشابهة مرفولوجيًّا أو نحويًّا أو إيقاعيًّا أو تركيبيًّا عبر شبكة من الاستبدالات والتباينات وذلك بفضل علاقة سياقية تحدد معنى الكلام"[٥]، ومما سبق تتلخص أنماط التشاكل في أنماط عدة، التشاكل الإيقاعي/ الصوتي/ الصرفي، والتشاكل التركيبي/ النحوي، والتشاكل المنطقي، والتشاكل المعنوي.

---

[١] ـ حياته وما تبقى من شعره: ٩.

[٢] ـ السابق: ٩.

[٣] ـ بحث بعنوان (ثنائية التشاكل والتباين في الخطاب النقدي المغاربي الجديد: إعداد أ/ محمد دبيح، جامعة بسكرة ـ الجزائر، كلية الآداب واللغات والفنون، قسم اللغة العربية وآدابها، مجلة (المخبر) ـ العدد العاشر، ٢٠١٤م، ص: ١٩٧، ١٩٨.

[٤] ـ تحليل الخطاب الشعري " استراتيجية التناص": ١٩، ٢٠.

[٥] ـ التحليل السيميائي للخطاب الشعري: د/ عبد الملك مرتاض، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥م، ص:٢٠، ٢١.

وأما مصطلح (التباين)؛ فقد عرف قديماً بمصطلحات عدة؛ حيث "ورد مصطلح التباين في البلاغة القديمة بمصطلحات كثيرة (الخبر والإنشاء، التقابل)، ويقوم التباين على إدراك العلاقة الدلالية بين الموضوع والمحمول بحيث يمكن أن يقع القارئ في خديعة الألفاظ"[٦]، ومن ثم؛فإن التباين يمكن أن يكون لفظيًّا أو معنويًّا أو تركيبيًّا أو إيقاعيًّا كذلك؛ فكل ما يكون من علاقة تتنوع تنوع المستويات الأربعة بين المسند والمسند إليه يعد تباينًا، وسيحاول البحاث التوقف مع هذين المصطلحين دون تقسيم لأنماطهما؛ فالعنوان الرئيس هو دراسة (الغربة والحنين) بتطبيق (التشاكل والتباين عليهما)؛ وبهذا ستكون عنونة المباحث بالغربة والحنين أصلًا والتطبيق السيميائي فرعًا على نماذج عينة الدراسة.

ثانيًا ــ عن الشاعر:

١ــ حياته ونشأته:

يعد ابن فضال الأندلسي أحد الشعراء المغمورين، حتى إن اسما متشابه مع رجل آخر؛ إذ إن " هناك اثنان يعرفان بابن فُضال، وكلاهما يكنى (أبو الحسن)، وهما: علي ابن فضال القيرواني المجاشعي النحوي وقد شرَّق، ومدح نظام الملك وزير الدولة السلجوقية، والثاني هو عبد الكريم ابن فضال القيرواني الحلواني، وهذا هو الذي غرب؛ فدخل صقلية والأندلس"٧، والمراد دراسته في هذا البحث هو ابن فضال الحلواني القيرواني الأندلسي الذي غرَّب، وهو أحد الشعراء الأندلسيين المغمورين، ويلقب بـــ (الحلواني)؛ فقد " اشتهر بالحلواني، ولا نعلم لماذا؟"٨، ولم يعثر الباحث على سنة مولده أو وفاته تحديداً، إلا ما جاء من إشارات إلى من عاش "من معاصريه بالقرن الخامس الهجري، أمثال إبراهيم بن محمد الشامي الكناني (صاحب الخمس) "[٩]، ومن ثم، كان ابن فضال الحلواني أحد الشعراء المغاربة الصقليين الذين عاشوا في القرن الخامس الهجري.

وقد وسمت الحياة المعيشية لطبيعة ابن فضال بالألم والحزن؛ إثر غربته واغترابه؛ إذ " عاش حزيناً مغتربًا، يعتصره الألم، ويبكي على شباب وعلى وطن، اثنين ضاعا منه بلا عودة، مضى الشباب، ومضى هو معه، وبقي شعره ليعكس لنا تجربة شاعر تقاذفته الخطوب، وأهمله الزمان والخلان، ونأت به الغربة بعيداً عن شاطئ السعادة والحب والراحة في الشباب والمشيب"[١٠]، ومن ثم، ظهر هذا في شعره عينة البحث، وسيكشف الباحث عن ذلك داخل البحث.

---

[٦] ـ التحليل السيميائي للخطاب الشعري: ٢٢ ـ ٢٤.

[٧] ـ لطائف الذخيرة وطرائف الجزيرة: ٦٦ (ترجمة ١٠٢)

[٨] ـ حياته وما تبقى من شعره: ٨ .

[٩] ـ السابق: هامش(١)، ص٩.

[١٠] ـ نفسه: ١١.

٢ ــ شعره:

لقد تنوعت أغراض شعر ابن فضال، ما بين مدح وغزل وفخر...؛ إذ "له كلام في النسيب رائق، ومتأخر سابق، ومديحه أيضاً عليه طلاوة، وبالجملة ففي ألفاظ الحلواني حلاوة"[١١]، وقد صبغت تلك الأغراض بصبغة الحنين ولوعة الاغتراب والغربة، سواء أكانت غربة نفسية في مسقط رأس الشاعر أو في موطن اغتراب، أو طبيعة المرحلة العمرية من الشباب إلى الشيب أو حنين الشاعر إلى وطنه أو محبوبته، كل ذلك سيتضح من خلال البحث، وذلك في المباحث الآتية:

١ ــ غربة الشيب والحنين إلى الشباب بين التشاكل والتباين:

لقد عبر الشاعر عن غربة التحول الذي ولَّد اغترابًا جسديًّا تجاه ملامح شعر شيبه، وما جال بالخاطر الشعري من ذكريات شباب الشاعر وفتوته، فيقول معبرًا عن ذلك في صورة مجازية لونية، راسمًا ألفاظه ومعانيه عبر التشاكل والتباين:

لـــئن كـــان البيـــاضُ لبـــاسَ حـــزنٍ بأنـــــدلسٍ فـــــذاكَ مـــــن الصـــــوابِ

ألـــم ترَنـــي لبِســـتُ بَيـــاضَ شـــيبي لأنِّـــي قـــد حزنـــتُ علـــى الشَّـــبابِ"[12]

لقد استخدم ابن فضال الحلواني تشاكلاتٍ وتباينات، تكشف عن حنين الشاعر إلى شبابه؛ فاتخذ الشاعر الثياب البيض التي اعتاد الأندلسيون لبسها في الأحزان؛ فقد نوه بهذا المقريّ، قائلا:" "وفي لباس أهل أفقنا البياض على المتوفي"[١٣]، وقال بعضهم في لباس أهل الأندلس البياضَ في الحزن، مع أن أهلَ المشرق يلبسون فيه السوادَ:

صدقتكم فالبياضُ لباسُ حزنٍ ولا حزنٌ أشدَّ من المشيبِ"[١٤]

وسيلة لمحاكاة ما حل بشيبه من بياض؛ فحزن الشاعر على فوات شبابه وابيضاض شعره حزن مشاكل تشاكلًا لونيًّا لبياض ثياب الأحزان لدى الأندلسيين؛ وفي هذا تشاكل لفظي متماثل لفظيًّا لكلمة (بياض)؛ فقد تكررت في المقطوعة الثنائية مرتين، في سياق أحزان الأندلسيين وما حل بالشاعر من شيب لرأسه؛ فالبياض دالة مشتركة بينهما، ورغم ذلك، فإن هناك تشاكلًا لفظيًّا مماثلًا للون (الأبيض) في استعماله في ثياب الحزن وشيب الشاعر؛ فالبياض فيهما وظف في

---

[١١] ـ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٧/ ٢٨٤. (إحسان شاملة).

[12] ـ أبو الحسن عبد الكريم بن فضال الحلواني القيرواني "حياته وما تبقى من شعره": ٢٦ .

[١٣] ـ الذخيرة: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ١/ ٥٠٦.

١٤ ـ السابق: طبعة أخرى: طبعة دارصادر ـ بيروت، د.ط، ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م: ٣/٤٤٠، ٤٤١ .

موقفي حزن وألم وحنين؛ وفي هذا مشاكلة معنوية فالذي لبس ثياب الحزن على ميته يشتاق ويحن إلى ذلك المتوفى، كما يحن الشاعر إلى شبابه كذلك، وأخيراً فإن هناك تبايناً عددياً من حيث عدد الناس الذين يوصفون بـــ(البياض)؛ فالشاعر واحد فقط حل به بياض الشعر، بخلاف ثياب الحزن فعدد من يلبسون ذلك البياض أناس كثر؛ ففي هذا تباين عدديّ.

كما أن تكرار مادة (ل/ ب/ س) تؤكد ما حل بالشاعر من ابيضاض شعر رأسه؛ فقد هجم الشيب على رأسه ولا يستطيع أن ينفك منه أو عنه؛ بخلاف كلمة (لباس) التي هي مؤقتة في لبس الأندلسيين في أحزانهم؛ فالثياب البيض في أحزانهم يلبسونها مدة، ثم يخلعونها؛ بخلاف الشيب الذي لا يستطيع الشاعر أن يتخلص منه؛ فلا يجد بُدًّا من الانفكاك عن ذلك الشيب إلا بوسيلة معنوية (الحنين إلى الشباب)؛ وفي ملازمة الشيب للشاعر دائماً ولبس الثياب البيض وقت الأحزان فحسب؛ في هذا تباين زمني؛ فمدة الأحزان ستنتهي أم الشيب فمستمر كثوب مجازي لشعر رأس الشاعر، ويؤكد ذلك تكرار دالة (الحزن) بصيغة متباينة (حزن، حزنت) مما يؤكد شدة حزن الشاعر واشتياقه إلى مرحلة الشباب في حياته.

إضافة إلى التشاكل المعنوي الدلالي بين (البياض، الصواب)؛ فغالب لبس البياض بهجة وسرور...؛ إلا أن الأندلسيين استخدموه في الحزن؛ فالثياب البيض في الأحزان تذكرهم بكفن الموتى؛ وكأنهم في يوم ما سيكون مصيرهم إلى الثرى، مثلما حزنوا على من واروه تحت التراب. ثم إن هناك تبايناً بين دالتي (البياض، حزن) فالكلمتان متباينتان لفظيًّا؛ فكل واحد متطابقة مع الأخرى؛ فالبياض يشير في العادة إلى الفرح والسعادة بخلاف كلمة (حزن) التي تستخدم في الحزن؛ وفي هذا تباين لفظي دلالي، علاوة على أن تلك التشاكلات والتباينات فيها تباين للغربة النفسية للشاعر؛ فمما لا شك أن مرحلة الشباب مرحلة فتوة وفرح وسعادة ورفاهية؛ بخلاف مرحلة الشيب فهي مرحلة ضعف وفتور وخور، وبهذا تتباين المرحلتان.

٢ ــ الحنين إلى الأماكن الحجازية وغربة الشاعر بين التشاكل والتباين:

لقد حنّ الشاعر إلى حج بيت الله الحرام، فعبر عن ذلك بـــ(**حنين ديني واغتراب بُعْدِيّ**) بذكر حنينه إلى الحجر الأسود ورمي الجمار وماء زمزم؛ حينما أحس بغربته بين أبناء مجتمعه وما آل أمره إليه، فوجد أن الحنين إلى المناسك وسيلة لتخلصه من غربته واغترابه بين أبناء مجتمعه، وقد عبر عن ذلك في ثوب مجازي؛ فسطر الشاعر حنينه حينما قال في غلام أراد النهوض إلى حج بيت الله الحرام:

(المنسرح)

يـــا طالـــبَ الحـــجِّ وهـــو ذو صِـــغرٍ عجلـــتَ فاســـتأنْه إلـــى الكِبَـــرِ*[١٥]

إن كنـــتَ تبْغـــي مَثُوبـــةً فعسَـــى تحْمِـــلُ لـــي قُبْلَـــةً إلـــى الحَجَـــرِ*[١٦]

وإن رميـــتَ الجمـــارَ فـــارمِ بهـــا كـــلَّ فـــؤادٍ عليـــكَ لـــم يَطِـــرِ

فقـــال دعنـــي وزمزمًـــا فعســـى أغســـل جفنـــي مـــن دم البشـــر"[١٧]

لقد اتخذ الشاعر من حنينه إلى البيت الحرام وما فيه من ذكر بعض المناسك وسائل فنية رصد فيها أنماطًا عدة من التشاكل والتباين لفظًا ومعنًى؛ فقد سطر الشاعر أبياته حينما أراد شاب صغير أن يحج، فاتخذ الشاعر من التشاكل والتباين بين الصغر والكبر تباينًا لفظيًّا، في دالتي (صغر، الكبر) فالشاعر لم يرد أن يُزهِّد الغلام في الحج، وإنما أراد أن يبين أن عادة الناس أن يحجوا وهم كبار؛ وفي هذا إشارة إلى أن الحج لا يجب إلا على البالغ؛ لكن لن يحرم المرء من مثوبة حجه قبل البلوغ؛ ومن ثم، أكد الشاعر استحقاق المثوبة لذلك الغلام، كما أن هناك تشاكلًا معنويًّا بين دالتي (فاستنه، الكبر)؛ فالغلام لازال صغيراً، والشاعر ينصحه بألا يتعجل الذهاب إلى الحج لصغر سنه بأن ينتظر حتى يكبر؛ وفي هذا تشاكل معنوي؛ فالانتظار هو وسيلة زمنية إلى الكبر؛ فيحمل معنى الكبر في طيات الانتظار، باعتبار ما سيكون مستقبلًا.

ثم يحن الشاعر إلى الحجر الأسود، طالبًا من الغلام أن يقبّل له الحجر الأسود؛ وهي عادة المسلمين في مناسك حجهم؛ اقتداء برسول الله في تقبيله؛ فالشاعر يحن إلى الذهاب إلى الحج ليقبل الحجر، لكنه لم يستطع، فأوصى ذلك الغلام بتلك القبلة إلى الحجر الأسود. ثم يشاكل الشاعر بتكرار اشتقاقي لغوي لجذر (ر/ م، ى) مُكَرِّرًا دالتي (رميت، فارم) وإن كانتا مختلفتين في الزمن؛ ليعبر الشاعر عن شدة حنينه إلى رمي الجمار؛ فأهل مجتمعه قد خذلوه حينما ابتعدوا عنه؛ فينصح الشاعر ذلك الغلام بأن يتذكر أثناء رمي الجمار أن تلك الجمار ستقذف في قلب كل من لم يهتم بأمره أو يصاحبه أو يتعاون معه من أبناء مجتمعه، من كل من يكرهونك ويبغضونك، فكأن هذا الغلام سيرمي تلك الجمار في قلوب هؤلاء، بدلالة الأخير (غسل عينيه بماء زمزم) مثل رميهم بالحجارة (الحجر، زمزم) من المشاعر، الشاعر يود على لسان الغلام أن يرمي قلوب الغدر

[١٥] ـ وفي بعض الروايات: فاستنَّه إلى الكبر، بدلًا عن (فاستأنه): حياته وما تبقى من شعره: ٣٥

[١٦] ـ وفي بعض الروايات: (من الحجر): المرجع السابق.

[١٧] ـ نفسه: ٣٥

والخونة والمبغضين له بالجمار، كما أن هناك التفاتًا بلاغيًّا التفات من الحجر إلى الجمار، بالانتقال مما يخص الشاعر(الحجر) إلى ما يخص الغلام(الجمار)، ... وفي هذا بيان لشدة حنين الشاعر إلى أن يذهب إلى الحج ليفعل بالجمار تلك المعاني القلبية النفسية التي سيستحضرها أثناء رمي الجمار، وكون الشاعر يورد (الحجر، الجمار) فهو تشاكل معنوي؛ فكلاهما ينتميان إلى حقل (الصخور)، إضفة إلى تشاكلهما المكاني؛ فكلاهما في مناسك الحج، رغم تباينهما في حجمهما؛ فالحجر الأسود أكبر والجمار حصيات صغيرة؛ مع تباينهما في الحركية والسكون؛ فالجمار تقذف متجهة حيث يوجهها الرامي، بخلاف الحجر الأسود الذي هو ثابت لا يتحرك ولا يرميه الحاج، وأخيراً تباين وقتهما الزمني؛ فالجمار في الحج لها وقت محدد في أيام الحج فحسب، بخلاف استلام الحجر؛ فيكون في الحج والعمرة.

كما أن الشاعر يحن إلى ماء زمزم لتكون وسيلة إلى غسل نفسيته وقلبه ممن خذلوه من البشر؛ فتلك الماء مباركة؛ فيتمني على لسان الغلام أن يرتوي من ماء زمزم ويغسل وجهه بها مجازيًّا؛ فغسل الوجه أو الشرب من تلك الماء سينسي الشاعر ما أهمه وأحزنه من صنيع الناس، وبهذا يكون الشاعر قد اتخذ ثلاث دوال في حنينه إلى حج بيت الله الحرام، وهي: (الحجر، الجمار، ماء زمزم)، لتكون رسائله الحنينة مرسلة بواسطة ذلك الغلام؛ فحنين الشاعر ينقله عبر قنوات اتصالية على لسان الغلام ليوصل الغلام حنين الشاعر وأمنياته إلى تلك الرموز الثلاثة. وختاماً، فإن التكرار الإيقاعي الصوتي لـــ (حرف الراء) فيه تشاكل دلالي على مستوى المقطوعة كلها؛ فالشاعر يعبر عن تردده في ذهاب الغلام إلى الحج، وينصحه أن يؤخره إلى الكبر، إلى جانب(التشاكل الزمني) فتناسبت المقطوعة في قصرها مع قصر مدة الرمي والتقبيل للحجر.

٣ ــ الحنين إلى الوطن وغربة البَيْن بين التشاكل والتباين:

(البسيط)

لله منزلـــــــةٌ بـــــــالقيروانِ محَـــــــا أيامَهـــــا البـــــينُ لا الأيـــــامُ والقِـــــدَمُ

شـــــققْتُ جيـــــبَ شـــــبابي بعـــــد فُرْقتِهـــــا حُزنًـــــا عليهـــــا ولا شـــــيبٌ ولا هـــــرمُ

إن فـــــرَّق الـــــدهرُ عنهـــــا شـــــملَنا فلنـــــا بصـــــاحبِ الخُمـــــسِ إبـــــراهيمَ معتصـــــمُ"[18]

[18] ـ أبو الحسن عبد الكريم بن فضال الحلواني القيرواني "حياته وما تبقى من شعره": ٤٨.

في هذه المقطوعة يحن ابن فضال إلى وطنه الأصيل (مدينة القيروان) التي قضى فيها طفولته، فيتذكر أيام صباه بتلك المدينة، وقد صار مغتربًا في مدينة(صقلية) في شيخوخته؛ فيرسم تلك الغربة وذلك الحنين من خلال المفارقة عبر وسيلة التشاكل والتباين بين صباه وشيخوخته؛ فالتشاكل المعنوي بين دالتي (محا، البين) يعبران بدلالتهما عن الغربة والاغتراب والبعد؛ فقد محت الغربة آثاره الجميلة التي عاشها في صباه، فصار (البين) حاله بصقلية ببعده عن موطنه؛ وبهذا تتشاكل الدلالة في كونها إشارة إلى الغربة والبعد والفراق لموطن الطفولة والصِّبى، كما تتشاكل الدالتان (منزلة، القدم) فهما يعبران عن جمال طفولتها التي قضاها بـــ(القيروان)؛ فقد كانت أيام لها مكانة ومنزلة في قلب الشاعر؛ لكنها تلاشت وامحت بعد كهولته؛ ومن ثم أصبح الشاعر في " وحشة المكان وعزلة الذات؛ فتجربة الذات في المكان الآخر تصير علاقتها بالمكان المادي بتمظهراته الطبوغرافية إشكالية تراود الوعي وتضغطه بتوتراتها"[١٩]، وبهذا كان اغتراب الشاعر مُتَوِّترًا لا هناء له ولا سعادة باغترابه عن مسقط رأسه، مما كان أساسًا لحنينه إلى مسقطه.

ثم يرسم بصورة مجازية كنائية لكهولته وذهاب شبابه؛ فقد شقت الكهولة في غربته بـــ(صقلية) جيب شبابه الذي عاشه بـــ(القيروان)؛ وذلك بعد تركه (القيروان)، وفي هذا تباين دلالي لفظي بين دالتي (شبابي، شيب)؛ فالشباب في (القيروان) موطن الشاعر، تحول إلى (شيب) في غربته بصقلية.

ورغم غربة الشاعر وألمه وحنينه إلى موطنه الأصيل، إلا أنه وجد ما يخفف آلامه، وذلك بتذكر نبل صديقه الوزير (محمد بن إبراهيم الكناني الشامي)؛ وقد عبر الشاعر عن ذلك بالتباين اللفظي بين دالتي (فرق، معتصم) فكلاهما متضادان دلالة؛ فرغم أن الشاعر قد ترك موطنه، لكن بقيت ذكرى صاحبه التي كانت وسيلة أنس للشاعر في غربته؛ وبهذا تواردت فكرة الحنين على خاطر الشاعر، رغم غربته، وبهذا عاش الشاعر على ذكريات الماضي حنينًا في حاضر الواقع غربة، ومن ثم، فالمقطوعة كلها مفارقة تشاكلية تباينية بين حنين الشاعر إلى موطنه (القيروان) وغربته بـــ (صقلية)، ويعبر عن حزن الشاعر قافية (الميم) التي تحاكي الأنين والألم الذي يحياه الشاعر في غربته حَانًّا إلى موطنه الأصيل، لكن الشاعر اتخذ من بعض معادلًا موضوعيًّا للأنس والتلهي في غربته، وذلك بتذكره صاحب الخمس؛ إحدى " الوظائف الحكومية الأخرى فكان ينهض بها أصحاب الدواوين والموظفون فيها؛ فديوان الخمس فأن متوليه كان يسمى " صاحب الخمس " وشخصيته ذات شأن في تاريخ صقلية وأدبها، فهو يتولى أمر البلد حين لا يكون لها والٍ، وهو

[١٩] ـ الاغتراب في شعر سعدي يوسف "قراءة ثقافية": ١٥٢.

بحكم مركزه مقصد الأدباء والشعراء"٢٠، ومن ثم، اتخذ ابن فضال (إبراهيم الكناني/ صاحب الخمس) صاحباً له؛ فكان من أكثر الناس وفاء للشاعر في حله وترحاله حال تذكر أيامه الخوالي مما كان وسيلة لتخفيف غربة ابن فضال، فيحن وقتها إلى أيام صداقتهما وودهما.

٤ ــ الغربة بين الاغتراب الاستيطاني والحنين إلى الوطن الأم:

(الكامل)

يــا نفــسُ ويحــكِ فــي التَّغــرُّبِ ذلــة فتَجرَّعِـــي كَأْسَـــيْ أذًى وهـــوانِ

وإذا نزلــتَ بــدارِ قــومٍ دَارِهــمْ فلهــم عليــك تعــزُّزُ الأوطــانِ

فالشَّــمسُ أشــرفُ مــا تكــون بِكبْشِــها وســقوطِها فــي كِفَّــةِ الميــزانِ"٢١

يعبر الشاعر عن مر الغربة آلامها؛ وذلك من خلال دالة (ذلة) تلك الكلمة التي تحمل في طيات ذالها الرخوة طول مدة صعوبة الغربة ومقاساة التغرب؛ ولهذا يشاكل الشاعر بينها وبين الدوال الثلاث (تجرعي، أذى، وهوان) من البيت الشعري نفسه؛ فتلك الثلاثة نتيجة ومماثل نفسي لتلك الذلة في التغرب؛ فالمرء في غربته يعيش الحياة بحلوها ومُرِّها برخائها وشدّتها لتمر أيامه ولياليه، ومن ثم، اتخذ دالة (ويحك) فيلوم الشاعر نفسه على تغرُّبه، متمنيًّا أن لو كان بموطنه الأصلي، وفي هذا حنين إلى رغد العيش بموطنه ورخائه وجماله؛ لكنَّ طبيعة الحياة التنقل؛ فهي لا تدوم على حال، ولهذا، أكد هذا في البيت الثاني أن المرء سيتغرب وسط أناس في أوطان عدة؛ فليس التغرب مقره وطن مستعار/ فرعي واحد؛ وإنما أوطان، ولذلك يحث الشاعر المغترب أن يجاري من يكون غريباً بينهم ويتعامل معهم بحنكة وحكمة ومداراة لا تضر ببقائه بينهم؛ وذلك في صورة تشاكل إيقاعي جناسي ناقص بين دالتي (دار، دارهم)؛ يتخذ الشاعر وسيلة حنين إلى حال المرء في وطنه الأصيل عزيزاً صريحاً لا يحتاج إلى تكلف أو مداراة غالبا؛ فأهله وعشيرته يحتمي بهمك ويذودون عنه، بخلاف دار الغربة؛ فهي وطن لأهلها والشاعر مغترب بها؛ فليكن المرء على حذر وحيطة؛ كما أن المرء في أوطانه المستعارة/ الفرعية يستقوي بمن هو بينهم ويحتمي وتصير له مكانة بوجودهم جواره؛ ولهذا تماثل جذر (د/ا/ر) يعبر عن معاني المداراة، بما فيها من منفعة لكل مغترب، وكأن المغترب صار مواطناً أصيلًا في موطن غربته؛ فالتجانس الإيقاعي للدالتين (دار، دارهم) يكشف عن سبب ونتيجة؛ فالسبب هو (الاغتراب) ويكون بوسيلة

٢٠ ـ وقد تنوعت الدواوين إلى أربعة أنواع: وقد عدت المصادر من الدواوين: ديوان الخمس، ديوان الصناعة، ديوان الخاصة، ديوان الإنشاء: العرب في صقلية " دراسة في التاريخ والأدب": إعداد/ د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٧٥م، ص: ٥٥.

٢١ ـ أبو الحسن عبد الكريم بن فضال الحلواني القيرواني "حياته وما تبقى من شعره": ٥٦.

(المداراة) لتكون النتيجة لمن يداري ويعايش بحكمة أنه سيصير في (دار) رغم أنها موطن الغربة، ومن ثم اتخذها الشاعر في غربته؛ فكل يوم في وطن مغاير، ويحتاج إلى هدوء واستقرار حيثما كان.

كما أن هناك تشاكلًا تركيبيًّا تكراريًّا للجملة الاسمية في قوب الشاعر: (فالشمس أشرف، ... وسقوطها)؛ فتكرار الجملة الاسمية مشتملًا على التباين المعنوي المجازي بين (أشرف، سقوط)، (كبش، ميزان) فمن عاش بالمدارة صارت له منزلة عظيمة تلك الدوال الرئيسة لتأكيد مكانة المغترب في موطن غربته؛ ليكشف الشاعر أهمية المداراة للمغترب في موطن غربته؛ ومن ثم، اتخذ الشاعر تلك الوسيلة التي ستكون طوق نجاة له ووسيلة استقرار في اغترابه؛ حتى يصير كأنه مواطن أصلي في موطن غربته؛ بمداراته تلك؛ فالناس حوله حينما يعتز بهم وبسندهم وتعاونه معهم فلن يخذلوه كالشمس في علو مكانتها وارتفاعها، وإلا صار لا قيمة له في موطن غربته، لا ترفع له قائمة كالشمس تسقط عند غروبها، فيصير المغترب في أفول وكآبة ووحشة ووحدة.

٥ ــ غربة الفراق والحنين إلى المحبوبة بين التشاكل والتباين:

لقد شحنت قريحة الشاعر بما فيه من هيام وشوق لمحبوبته؛ فكان ذلك دافعًا لتعبير الشاعر عن شعوري الحنين واغترابه الجسدي بعد فراقها وبعده عنها؛ فيقول في ذلك:

(البسيط)

طمعتُ فيه وغرَّتني لواحظُه ... إن المطامعَ أسبابُ الشياطينِ

قل لابنِ خمسٍ وعشرينَ من أينَ جرتْ ... سهامُ عينيكَ في قلبِ ابنِ سبعينَ

ما حُجَّتي عند مَنْ في الحبِّ يَعذِلُني ... وآيتي في نبَّواتِ المَجانينِ

إن كنتَ في الحبِّ سُلطانا على كَبِدي ... فَخَفْ عقوبةَ سلطانِ السلاطينِ

أوْ كانَ عندكَ للمِسْكينِ مرحمةٌ ... فإنَّ عبدَك مسكينُ المساكينِ"[٢٢]

في هذه الأبيات يحن الشاعر في غربته إلى محبوبته، فيتخذ من صفاتها وسيلة لحنينه؛ فيتخذ من التشاكل المعنوي لدالتي (طمعت، غرتني) وسيلة لهيامه النفسي وشوقه إلى محبوبته، معللًا ذلك بتشاكل آخر تعليلي لسر تعلقه، وهما دالتا (المطامع، الشياطين) وكأن الشياطين هي التي تكمع الإنسان وتجعله يتسخط ولا يرضى.

[٢٢] ـ أبو الحسن عبد الكريم بن فضال الحلواني القيرواني "حياته وما تبقى من شعره":٥٥.

ثم يبرر الشاعر سرّ طمعه وتعلقه، وهو سن تلك المحبوبة الشبابي؛ وفي هذا تباين زمني؛ فعمر المحبوبة (خمس وعشرون) وسن الشاعر (سبعون) وفي هذا مبالغة دلالية للكشف عن كونها في شبابه وكونه شيخاً؛ فليس عمرهما تلك الأرقام على الحقيقة؛ بدليل أن الشاعر تُوفِّي في سن أصغر مما ذكر، وبهذا، حق للشاعر أن يعبر بصورة مجازية؛ فقد اخترقت سهام لحاظ تلك المحبوبة قلب الشاعر، فزاد طمعه وتعلقه بها؛ وفي هذا تباين حركي؛ فالسهام حينما جرت، فدخلت القلب استقرت ولم تنفذ من ظهر الشاعر، وفي هذا تأكيد على إقرار واستقرار حب تلك الفتاة في قلبه.

ثم يدفع الشبهة عن تعلقه بها، بدالتين متشاكلتين: (حجتي، آيتي)؛ فيبرر عدم حجاته لإثبات تعلقه؛ فالحب يتحكم في قلب صاحبه، فيصير متشاكلًا دلاليًّا (الحب، المجانين) في تصرفاته وحركاته كالمجانين)، فليراع اللائمون هيامي وتعلقي بتشاكل دالتي (مرحمة، مسكين) لقلب الشاعر انكساراً وتقيداً واحتياجاً مثل المساكين.

ولما لم يستطع الشاعر التخلص من تعلقه؛ فقد عبر عن تلك العلاقة القوية التي لا تنفك عن قلبه بالتشاكل الصرفي للوزن (شياطين، سلاطين) فهي متمكنة مسيطرة عليها، مثلما يسيطر السلاطين على رعايهم أو الشياطين على من يغوونهم.

كما أن التشاكل التركيبي الأسلوبي للبيت الأخير مع ما قبله يشكل الحالة النفسية المضطربة في غربته لتعلقه بمحبوبته وحنينه إليها؛ فكلا البيتين (أسلوب شرط) له فعله وجوابه: إن كنت... فخف) (أو كان ... فإن)، فرغم ما سيلاقيه إلا أنه سيظل حافراً لها مكانتها في قلبه بحنينه إلى أيام ذكرياتها؛ فما سيلاقيه عبر عنه بالتباين المعنوي (سلطاناً، فخف) (الحب، يعذلني)، (الحب، عقوبة) (سلطان، عبد)؛ فكل هذه الدوال المتباينة تؤكد معاناته في محبته وحسرة قلبه وألمه على فراقها إلى وطن غربته الذي آل أمره إليه؛ ولهذا لجأ إلى التكرار الثلاثي للدوال: (الحب، سلطان، مسكين)، لتكون المقطوعة متشاكلة دلاليًّا من مطلعها إلى نهايتها؛ بوسيلة تكرار جناس اشتقاقي لغوي للجذر (ط/ م/ع)، لدالتي: (طمعت، مطامع)، فما دفعه إلى ذلك الحنين هو تغربه واغترابه عن محبوبته؛ فلوعة البعد وشوق اللقاء حالت دونهما الغربة، فلم تَبقَ له إلا ذكرياتُ حنينه إليه محبوبته.

٦ ــ سيميائية الغربة النفسية وحنين الفراق الجسدي المكاني:

لقد أثار قريحةَ الشاعر وهيجها فراقُ الأحبة حال استعدادهم للرحيل، معبراً الشاعر عما طار له وجدانه وحواسه من تمن وحنين وألمّ، فتذكر حاله الذي سيؤول أمره إليه من غربة واغتراب، فقال:

(الطويل)

ولمـــــا تنـــــادَوْا للرَّحيـــــلِ وقُربِّـــــتْ كِـــــرامُ المطايـــــا والرِّكـــــابُ تَسِـــــيرُ

جعلـــتُ علـــى قلبـــي يـــديَّ مُبـــادرًا فقـــالوا: مُحِـــبٌّ للعِنـــاقِ يُشِـــيرُ

فقلـــتُ: ومَـــنْ لـــي بالعِنـــاقِ، وإنَّمـــا تـــداركتُ قلبـــي حـــينَ كـــادَ يطيـــرُ"[٢٣]

لقد جاءت هذه المقطوعة مغايرة في رسم صورة الغربة والحنين؛ إذ وظفت عناصر السرد فيها، وأساسها (الراوي) الذي يحكي لنا الموقف، وهو الشاعر؛ فالراوي/ الشاعر هو الذي نسج خيوط البناء السردي، وعناصر ذلك البناء: (شخصيات الحدث، الزمان، المكان، الصراع، حوار/ لغة)؛ فالشخصيات هم الراحلون(تنادَوْا)، سواء أكانت محبوبته أو عشيرته أو المطايا؛ فالشخصيات إنسانية وحيوانية، إلى جانب حضور الحدث، وهو (فِعْل الاستعداد للرحيل والفراق) إلى جانب توافر عنصر (المكان) بنوعيه، وقد جاء المكان مناسبًا لطبيعة الرحيل؛ فهو مكان مفتوح، وهو (الصحراء/ الفضاء المفتوح) والمكان المغلق المفهوم سياقيًّا وهو (الهودج) حينما قربت المطايا لركوب الراحلين، وفي زمان (وقت الرحيل) كل ذلك أحدث (صراعًا) نفسيًّا لدى الشاعر؛ فهو حزين على فراق أحبته؛ حتى كاد قلب الشاعر أن يطير مع الراحلين حنينًا للرحيل معهم وتألمًا على الفراق؛ فقد مدّ الشاعر يديه وكأن الراحلين طائر يود إمساكه لئلا يطير.

ومما يؤكد حنين الشاعر وتألمه على الفراق التشاكل المعنوي بين:(تنادوا، قربت)، فكلاهما يدلان على الاستعداد والتهيؤ للرحيل المؤكد، ومن ثم كرر الشاعر (وسيلة الترحال) وهي: (المطايا، الركاب)، ولكن لما كان الشاعر مقيمًا غير راحل مع تلك المطايا؛ فقد شاكل الشاعر بين دالتي:(مُبادِرا، تداركت) فمبادرة الشاعر بأن تصبر وتحمل بوضع يده على صدره، وكأنه يمسك قلبه؛ فاليد هي وسيلة جبر كسره وألمه النفسي؛ وما ذلك إلا لأن الدالتين: (محب، عناق) كلاهما يدل على المودة والمحبة، إلى جانب الوفاء بتلك المحبة حسيًّا ومعنويًّا؛ فالتباين المعنوي جواني براني، بين الظاهر والباطن؛ الحب معنى معنوي والعناق ظاهري مرئي؛ فبينهما تباين يؤكد الحالة النفسية للشاعر التي أصبح فيها إثر الفراق؛ يؤكد ذلك الفراق التشاكل النفسي الزمني للفعلين (قربت، تسير)؛ من ناحية كونهما (زمن)؛ فوقت الرحيل ووقت حزن الشاعر واحد؛ إلا أن التباين في الحدث وزمن الفعل (قربت/ ماض/ تسير/ مضارع) أكد أن القوم قد عزموا على

[٢٣] ـ أبو الحسن عبد الكريم بن فضال الحلواني القيرواني "حياته وما تبقى من شعره": ٣٢.

الرحيل؛ فقربوا المطايا لتركب؛ وهنا تحول حركي؛ فالمطايا قربت ساكنة ليركبوا ثم تتحرك بهم بعد ذلك وتسير.

كما أن الشاعر استعمل التكرار الإيقاعي الصوتي بواسطة حرف (الراء) في القافية؛ ذلك الحرف الذي "يجيء رويًّا بكثرة، وإن اختلفت نسبة شيوعه في أشعار الشعراء"[٢٤]، ممّا يدل على أن الشاعر ركب طريقة الشعراء في قوافيهم؛ فحرف (الراء) في المقطوعة يدل على اضطراب نفسية الشاعر وقلقه وآلامه، هذا إلى جانب تكرار مصدر العلامة الكبرى للحنين واللوعة والشوقة، وهما العلامتان:(العناق، قلبي)، كل ذلك الحنين وشدة التعلق بالراحلين يؤكد هيام الشاعر بمحبوبته وقومه حال رحيلهم عنه؛ ومن ثم، فإن الشاعر أصبح الشاعر في غربة نفسية وفراق جسدي؛ فتوالت أحزانه وازداد شوقه؛ حتى صور الشاعر ذلك في صورة حسية للقلب الذي كاد أن يفارق تلك النفس الحزينة؛ ليلحق ذلك القلب بهؤلاء الراحين؛ لكن اليد حالت دون ذلك الطيران؛ وهنا يأتي دور الحواس الخمس حسيًّا لينجح الشاعر في التعبير عن الجانب النفسي بالحواس؛ كل ذلك في صورة مجازية؛ تأكيدا للوعة الشاعر وأنينه وهيامه؛ فقد صار غريباً فريداً بعد رحيلهم.

٧ ـ الغربة الجسدية والحنين الروحي تجاه الوطن بين التشاكل والتباين:

لما طال الخرابُ مسقطَ رأس/ القيروانَ ابنِ فضال حنَّ إليها معبراً عن غربتها واغترابه؛ فتذكر أيام رخائها ونهضتا وجمالها؛ فقال:

(الخفيف)

كيـــفَ يـــا قيـــروانُ حالـــك لمّـــا   نثـــر البـــيْنُ ســـلكَك المنظومـــا
كنـــت أمّ الـــبلادِ شـــرقًا وغربًـــا   فمحـــا الـــدهرُ وشْـــيكَ المرْقومـــا
نحـــن أولادُهـــا ولكـــن عققْنـــا   بعـــد أن لـــم نُطِـــقْ بهـــا أن نُقِيمـــا
دِمَـــنٌ كانـــت البـــروجُ وكنّـــا   أقْمـــرًا فـــي قبابِهـــا ونجومـــا"[٢٥]

في هذه المقطوعة يحن الشاعر إلى موطنه (القيروان) وقتما كان عامراً قبل أن تعثو فيه أياد المخربين من العدو الغاشم، فيتساءل، وكأن القيروان إنساناً شاخصاً أمامه يخاطبه، سائلًا عن حال ذلك الوطن، بعدما تركه ابن فضال؛ فقد تحولت القيروان من در منظوم في سلكه المعقود إلى در منثور تفرق وخرب؛ ومن هذا يظهر تحول القيروان من الأمن والأمان والاستقرار وجمال تخطيطها وانتظامه إلى وطن مخرب لا تعرف معالمه؛ فصار وطناً غريباً لا يعرفه من يعود إليه

[٢٤] ـ موسيقى الشعر: د / إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ـ ط٢، ١٩٥٢ م: ٢٤٦.

[٢٥] ـ أبو الحسن عبد الكريم بن فضال" حياته وما تبقى من شعره": ٥١.

بعد سنوات؛ فقد كانت قديماً محط أنظار الجميع في مكانتها علواً وازدهاراً، وكالقمر جمالًا؛ فتبدلت الحال إلى خراب؛ فيتخذ الشاعر (التباين) ليظهر سيطرة تلك القيروان على البلاد المجاورة بدالتي (شرقًا، غربًا)، لكن لم يستمر ذلك طويلًا حتى محيت تلك المعالم؛ وبهذا يتباين الواقع الحالي للقيروان عما كان في الماضي.

ثم يلوم الشاعر نفسه، بأن كل من يترك وطنه فهو عاق له؛ فلو بقي كل مواطن في وطنه لدفع عنه ما يخربه ويدمره؛ ومن ثم، اتخذ الشاعر صورة مجازية للأم وولدها؛ فالوطن مسقط رأس الإنسان وحاضنه كأم لطفلها، وبهذا أصبح الشاعر غريباً في وطن غير مسقط رأسه، فيحن إلى القيروان، ولكن لا شيء يشجع الشاعر على العودة إليه لما آل أمر وطن الشاعر إلى خراب ودمار؛ بعد أن كانت القيروان قديماً مشهورة معروفة للقاصي والداني، فصارت أطلالًا ودمناً خربة لا أحد فيه؛ ومن ثم فإن هذا الحنين الذي يعايشه الشاعر في تلك المقطوعة تجاه (القيروان) لا يمكن أن يتحقق، لكنه الشوق والذكريات، إلى جانب تألم الشاعر من الغربة في غير وطنه؛ فلا وطن للمرء يؤويه سوى مسقط رأسه؛ فهو الأمّ الحاضنة لأبنائها.

النتائج:

وفي ختام هذا البحث، خلص الباحث إلى نتائج عدة، من أهمها:

١ ــ توافر في شعرة موضوعة (الغربة والحنين) أكثر من غيرها حضوراً في شعره؛ فالغربة والحنين طبيعتها التحول والتغير، أو التذكر بين ماض وحاضر ومستقبل مع المقارنة بين كلٍّ؛ وعدم الثبوت على حال، مما يتناسب مع التشاكل والتباين.

٢ ــ عبر الشاعر عن غربته حال مشيبه وحنينه إلى أيام الشباب في صورة لونية جسمية متخذاً من اللون الأبيض ــ الذي يلبسه الأندلسيون في أحزانهم ــ وسيلة للتشاكل والتباين بين شبابه وشيبه؛ فلا يجد بُدًّا من الانفكاك عن ذلك الشيب إلا بوسيلة معنوية، وهي (الحنين إلى الشباب).

٣ ــ لقد حنّ الشاعر إلى حج بيت الله الحرام، فعبر عن ذلك **بـــالتشاكل والتباين (حنين ديني واغتراب بُعْدِيّ)** فوجد أن الحنين إلى المناسك وسيلة لتخلصه من غربته واغترابه بين أبناء مجتمعه؛ ومن ثم، حن الشاعر إلى ماء زمزم لتكون وسيلة إلى غسل نفسيته وقلبه ممن خذلوه من بني البشر.

٤ ــ يتذكر ابن فضال وطنه الأصيل (مدينة القيروان) التي قضى فيها طفولته، فيتذكر أيام صباه بتلك المدينة، وقد صار مغتربًا في مدينة(صقلية) في شيخوخته؛ فيرسم تلك الغربة وذلك الحنين من خلال المفارقة عبر وسيلة التشاكل والتباين بين صباه وشيخوخته.

٥ ــ اتخذ الشاعر موضوعة (المداراة) لتكون طوق نجاة له ووسيلة استقرار في اغترابه؛ حتى يصير كأنه مواطن أصلي في موطن غربته؛ فالناس حوله حينما يعتز بهم وبسندهم وتعاونه معهم؛

فلن يخذلوه، وإلا صار لا قيمة له في موطن غربته كموطن الشمس شروقا من موطنها الأصلي ومسقطها فرعيًّا؛ كل ذلك تشاكلًا وتباينًا للشاعر مع مجتمعه تعاونًا ومساندة وأنسًا وجمالًا وتعاونًا أو أفولًا ووحشة ووحدة.

٦ ــ يعد سر التشاكل الدلالي من مطلعها إلى نهايتها حال حنين الشاعر إلى محبوبته هو سر تغربه واغترابه؛ وقد عبر عن ذلك بوسيلة تكرار جناس اشتقاقي لغوي للجذر (ط/ م/ع)، لدالتي: (طمعت، مطامع)؛ فلوعة البعد وشوق اللقاء حالت دونهما الغربة، فلم تَبقَ للشاعر إلا ذكرياتُ حنينه إليه محبوبته.

٧ ــ توافر السرد القصصي رسم صورة الغربة والحنين؛ إذ وظف الشاعر عناصر السرد فيها، وأساسها (الراوي) الذي يحكي لنا الموقف، وهو الشاعر؛ فالراوي/ الشاعر هو الذي نسج خيوط البناء السردي، وعناصر ذلك البناء: (شخصيات الحدث، الزمان، المكان، الصراع، حوار/ لغة).

٨ ــ عقد الشاعر مقارنة عمرانية بين مسقط رأسه (القيروان) وقتما كان عامراً قبل أن تعثو فيه أياد المخربين من العدو الغاشم، فيتساءل في تشاكل وتباين دلالي! وكأن القيروان إنساناً شاخصاً أمامه يخاطبه، سائلًا عن حال ذلك الوطن، بعدما تركه ابن فضال؛ فقد تحولت القيروان من در منظوم في سلكه المعقود إلى در منثور تفرق وخرب.

قائمة المصادر والمراجع:

ــ مصدر عينة البحث:

ــ أبو الحسن عبد الكريم بن فضال الحلواني القيرواني الأندلسي" حياته وما تبقى من شعره": جمع وتحقيق وتوثيق ودراسة: د. محمد عويّد محمد الساير، دار تموز (طباعة ــ نشر ــ توزيع) ــ دمشق، الطبعة الأولى ــ ٢٠١٧م.

أولًا ــ المصادر:

ــ الذخيرة: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت: ٥٤٢هـ)

حققه: إحسان عباس، وقد رجع الباحث **إلى طبعتين لمحققه:**

ــ الدار العربية للكتاب، ليبيا ــ تونس، الطبعة الأولى، ١٩٨١م.

ــ طبعة دارصادر ــ بيروت، د.ط، ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م.

ــ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: أحمد بن محمد المقري التلمساني، حققه د/ عباس إحسان، دارصادر ــ بيروت، د.ط، ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م.

ثانيًا ــ المراجع:

١ ــ المراجع العربية:

ــ تحليل الخطاب الشعري " استراتيجية التناص" : إعداد / محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م.

ــ التحليل السيميائي للخطاب الشعري: د/ عبد الملك مرتاض، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥م.

ــ العرب في صقلية " دراسة في التاريخ والأدب": إعداد/ د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٧٥م.

ــ الاغتراب في شعر سعدي يوسف "قراءة ثقافية": د. رضا عطية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م.

ــ موسيقى الشعر: د / إبراهيم أنيس، مكتبة الإنجلو المصرية، ط٢، ١٩٥٢ م.

ثالثًا ــ الرسائل العلمية:

ــ التشاكل والتباين في ديوان قصائد متوحشة لنزار قباني: إعداد الطالبة/ آسيا بن عيش، مذكرة مقدمة لنيل الماستر في الآداب واللغة العربية، جامعة محمد خيضر بسكرة، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م.

رابعًا ــ الدوريات العلمية:

ــ بحث بعنوان (ثنائية التشاكل والتباين في الخطاب النقدي المغاربي الجديد: إعداد أ/ محمد دبيح، جامعة بسكرة ــ الجزائر، كلية الآداب واللغات والفنون، قسم اللغة العربية وآدابها، مجلة (المخبر) ــ العدد العاشر، ٢٠١٤م، ص: ١٩٧، ١٩٨.